أوراق في التاريخ الاقتصادي الاستعماري

جيسون هيكيل*: كيف تسبّب المستعمرون البريطانيون في خلق المجاعة في البنغال[1]

ترجمة: مصباح كمال**

تعتبر مجاعة البنغال واحدة من أفظع الأعمال الوحشية التي حدثت في ظل الحكم الكولونيالي البريطاني. ففي الفترة من عام 1943 إلى عام 1944، مات أكثر من ثلاثة ملايين هندي بسبب الجوع وسوء التغذية، وسقط ملايين آخرون في فقر مدقع.

لسنوات عديدة، عزا البريطانيون سبب المجاعة إلى الظروف الجوية ونقص الغذاء، كما لو أنها كانت كارثة طبيعية لا مفر منها. اليوم، يتفق معظم الباحثين على أن الأزمة كانت من صنع الإنسان، وكان السبب الرئيسي وراء ذلك هو التضخم في وقت الحرب الذي دفع أسعار الغذاء بعيدًا عن متناول اليد.

لقد أُتهمت بريطانيا بعدم القيام بما يكفي للتخفيف من حدة المجاعة. لكن الأبحاث الحديثة التي قامت بها الخبيرة عالمة الاقتصاد أوتسا باتنيك[2]

[1] نشر هذا المقال في مجلة New Internationalist بتاريخ 21 كانون الثاني/يناير 2022. رابط مقال Jason Hickel: How British colonizers caused the Bengal famine | New Internationalist

[2] المقال البحثي منشور في موقع *Economic & Political Weekly*:
Profit Inflation, Keynes and the Holocaust in Bengal, 1943–44 | Economic and Political Weekly (epw.in)
أوتسا باتنيك، بروفيسورة متقاعدة، مركز الدراسات الاقتصادية والتخطيط، جامعة جواهرلال نهرو، نيو دلهي.

Utsa Patnaik تشير إلى أن هذه الحكاية هي أكثر من ذلك. إن أبحاثها تكشف أن التضخم لم يكن عرضيًا، كما افترض معظم من كتبوا عن هذه المجاعة، ولكنه كان سياسة متعمدة، صممها الاقتصادي البريطاني جون ماينارد كينز [1883-1946] ونفّذها ونستون تشرشل [1874-1965]، لتحويل الموارد بعيدًا عن أفقر الهنود من أجل توفير المؤونة للقوات البريطانية والأمريكية ودعم الأنشطة المتعلقة بالحرب.

لفهم ما حدث خلال الأربعينيات من القرن الماضي، من المهم أن نفهم أنه جاء في أعقاب ما يقرب من قرنين من النهب الكولونيالي. من عام 1765 إلى عام 1938، انتزعت الحكومة البريطانية من الهند سلعًا تبلغ قيمتها تريليونات الدولارات وفق نقود اليوم، والتي تم استهلاكها إما في بريطانيا أو تم إعادة تصديرها من أجل الربح.(1) واستخدم هذا الربح المفاجئ لبناء البنية التحتية داخل بريطانيا، بما في ذلك الطرق والمصانع والخدمات العامة، وكذلك لتمويل التصنيع في المستعمرات الاستيطانية البريطانية والأوروبية الغربية. لقد جاء تمويل التنمية في شمال الكرة الأرضية في جزء كبير منه من النهب الكولونيالي.

تصميم المجاعة

بالنسبة للهنود، كان هذا النظام مدمرًا. فمع اشتداد النهب الكولونيالي، انهار نصيب الفرد من استهلاك الحبوب الغذائية في الهند من 210 كيلوغرامات سنويًا في أوائل القرن العشرين إلى 157 كيلوغرامًا سنويًا بحلول نهاية الثلاثينيات - وهو ما تشير إليه باتنيك باسم "التدهور الغذائي الشديد".

ما حدث خلال الحرب العالمية الثانية أدى إلى تفاقم هذا الوضع إلى حد كبير. فمع تدفق القوات الأمريكية والبريطانية إلى البنغال لشن عمليات عسكرية ضد اليابان، أصدرت الحكومة الكولونيالية مرسومًا يقضي، بالإضافة إلى آليات النهب الحالية، بتغطية جميع التكاليف المرتبطة بأنشطة

الحلفاء في المنطقة بالموارد الهندية، بشكل غير محدود، حتى نهاية الحرب.

شارك كينز، الذي كان مستشارًا خاصًا للسياسة المالية والنقدية الهندية لتشرشل ووزير الخزانة، بنشاط في التخطيط لاستراتيجيات التمويل وقت الحرب. إذ سعى إلى ابتكار آلية لتحويل الموارد بعيدًا عن السكان المحليين من أجل توفير الموارد للتوسع العسكري. كان أحد الخيارات هو فرض ضرائب على الأغنياء، ولكن لم يكن هناك ما يكفي منهم لتوفير قاعدة موارد كبيرة بما فيه الكفاية. فكان البديل هو فرض ضرائب على الناس العاديين، لكن كينز كان يعلم أن فرض أي ضرائب مباشرة على السكان الذين كانوا بائسين أصلًا من المحتمل أن يؤدي إلى أعمال شغب.

لذلك دعا إلى فرض ضريبة غير مباشرة، من خلال سياسة تضخمية متعمدة. وإليك كيفية عملها. خلال الأربعينيات من القرن الماضي، طبعت الحكومة الكولونيالية كميات هائلة من النقود للإنفاق العسكري. تسبب كل هذا الطلب الجديد في ارتفاع الأسعار، خاصة بالنسبة للسلع الأساسية. فقد ارتفع سعر الأرز بنسبة 300 في المائة. ولكن نظرًا لأن الأجور لم ترتفع وفقًا لذلك، فقد تم دفع الناس العاديين إلى المزيد من الفقر، مما أجبرهم على الحدِّ بشكل كبير من استهلاكهم للغذاء والسلع الأخرى. وفي الوقت نفسه، فإن أي أرباح إضافية لصالح أصحاب الأعمال نتيجة لتضخم الأسعار كانت تخضع للضريبة من قبل الدولة الكولونيالية.

لم يكن حصول التضخم من قبيل الصدفة. ولم يكن الفقر من قبيل الصدفة. إذ أن السياسة البريطانية صُممت صراحةً "لتقليل استهلاك الفقراء"، على حد تعبير كينز، من أجل توفير الموارد للقوات البريطانية والأمريكية، من خلال "التحويل القسري للقوة الشرائية" من الناس العاديين إلى الجيش. وتم فرض التقشف بشكل أكثر قسوة على شعب البنغال، الذين صاروا فريسة لمجاعة شديدة، بينما تم تخصيص الإمدادات الغذائية وتحويلها للاستخدام العسكري.

باسم قضية الحلفاء، قتلت السياسات التي فرضها كينز وتشرشل أكثر من ثلاثة ملايين شخص - أكثر بعدة مرات من العدد الإجمالي لكل ضحايا بريطانيا والولايات المتحدة مجتمعين من العسكريين والمدنيين خلال الحرب. يكاد يكون من المستحيل فهم حجم هذه المأساة. إذا تم رصف جثث الضحايا [الهنود] في سلسلة متصلة، فإنها ستمتد على طول إنجلترا، من دوفر [في أقصى الجنوب) إلى الحدود الاسكتلندية [في أقصى الشمال]، ما يقرب من 10 مرات.

خلال هذه الأزمة، ناشد عدد من المسؤولين في الهند تشرشل لإرسال المساعدة، لكن طلباتهم قوبلت بالرفض مرارًا وتكرارًا. وبدلاً من ذلك، حدث العكس تمامًا: واصلت الحكومة البريطانية نهب الدخل من الهند لتمويل إنفاقها المحلي، والذي بلغ إجماليه 15 مليار جنيه إسترليني (20 مليار دولار)، وفق نقود الوقت الحاضر، من عام 1939 إلى عام 1944.

وتشير باتنيك إلى أن هذا التدخل لا يمكن تبريره باسم المجهود الحربي. لقد اختار كينز وتشرشل تمويل أعمال الحلفاء من خلال الاستيلاء على الغذاء والموارد الأخرى من الشعوب المستعمرة، التي ليس لها رأي في الأمر - لكن كان بإمكانهم فعل ذلك بطرق أخرى. على سبيل المثال، كان بإمكان الولايات المتحدة وبريطانيا استخدام مواردهما الخاصة بدلاً من ذلك، الأمر الذي كان سيتطلب فرض ضرائب على مواطنيهما بما لا يزيد عن جنيه إسترليني واحد للفرد.

إرث ملوث

يجبرنا هذا التاريخ على التفكير في إرث الشخصيات التي يتم الاحتفاء بها على نطاق واسع اليوم. لطالما كان مفهوماً أن تشرشل يتبنى آراء حول تفوق الجنس الأبيض. ففي مقابلة أجريت معه عام 1902، ادعى أن "العنصر الآري سينتصر" على "الأمم البربرية العظيمة". وأشار إلى

الهنود على أنهم "جنس كريه"، أي "شعب وحشي مع دين وحشي". خلال احتجاجات حركة حياة السود مهمة Black Lives Matter لعام 2020، كانت هناك دعوات لإزالة تمثال تشرشل من وستمنستر. بوريس جونسون [رئيس الوزراء الحالي في المملكة المتحدة]، أحد المعجبين بتشرشل، رفض هذه الدعوة على أساس أنه لا ينبغي لنا "تعديل" "edit" تاريخ بريطانيا. إذا كان الأمر كذلك، فعلينا التأكد من سرد القصة الكاملة لإرث تشرشل - وبجانب كل تمثال له يجب تشييد نصب تذكاري لثلاثة ملايين هندي قُتلوا بسبب سياساته والذين يدين لهم انتصار الحلفاء في النهاية.

كينز، من جانبه، شخصية أكثر تعقيدًا إذ يحتفى به باعتباره تقدميًا. لكنه كان أيضًا إمبرياليًا، روّج لسردية "عبء الرجل الأبيض" لحكم "الأعراق الخاضعة" ولمصلحتهم. وشارك بنشاط في حكم الهند المستعمرة وأدان التمرد الهندي عام 1857. وعندما أنشأ البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في عام 1944، تأكد من دمج الهند والمستعمرات الأخرى في النظام بشروط غير متكافئة، مع منحها جزءا بسيطا فقط من قوة التصويت التي ستحتفظ بها بريطانيا والولايات المتحدة - وهو ترتيب لا يزال ساريًا حتى يومنا هذا. يضيف بحث باتنيك إلى هذه الصورة من خلال الكشف عن دوره في ارتكاب مجاعة البنغال. هذه جريمة يجب مواجهتها.

ما المطلوب من بريطانيا في ظل هذا التاريخ؟ الاعتذار، بالتأكيد - وهو ما لم يتم تقديمه حتى الآن. لكن هذه المجاعة هي أيضًا قضية مباشرة للتعويضات. لقد سعت ألمانيا إلى تقديم تعويضات عن المحرقة والإبادة الجماعية لشعب هيريرو-ناما، وهذا هو الفعل الصحيح[3]. لماذا لا تفعل بريطانيا الشيء نفسه؟

[3] الإبادة الجماعية للهيريرو وناماكوا أو الإبادة الجماعية للهيريرو وناما، وهي حملة إبادة عرقية وعقاب جماعي شنتها الإمبراطورية الألمانية في استعمارها لجنوب غرب إفريقيا الألمانية. وتعتبر أول إبادة جماعية في القرن العشرين، حدثت بين عامي 1904 و 1908.
للمزيد من المعلومات راجع الموسوعة الحرة:
https://en.wikipedia.org/wiki/Herero_and_Namaqua_genocide

أوراق في التاريخ الاقتصادي الاستعماري

ملاحظات [كاتب المقال]
(1) يحسب باتنيك وباتنيك[4] أن القيمة المطلقة للاستنزاف من 1765 إلى 1938 بلغت 10.5 مليار دولار (غير معدلة للتضخم)، وهو أكثر من الناتج المحلي الإجمالي للهند في نهاية تلك الفترة. وأشارا إلى أنه إذا تم استثمار قيمة البضائع المستنزفة بنسبة 5% سنويًا، لكانت قد بلغت 1.95 تريليون دولار في عام 1947، واستمرارا لنفس النهج، لكان الاستنزاف 66 تريليون دولار في عام 2020.

تصحيح: جاء في نسخة سابقة من هذه المقالة أن المجاعة عُزي سببها الأساس للجفاف؛ تم تعديله للاعتراف بأن السبب يكمن بكل عام في الظروف الجوية السيئة. بالإضافة إلى ذلك، تمت إضافة هامش لشرح حسابات باتنيك وباتنيك لاستنزاف الهند في الحقبة الكولونيالية .

* جيسون هيكيل، عالم أنثروبولوجيا ومؤلف وزميل الجمعية الملكية للفنون في بريطانيا. أحدث كتاب له:
The Divide: A Brief Guide to Global Inequality and Its Solutions (2017, Penguin Random House)

** مصباح كمال، كاتب في قضايا التأمين

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر.
http://iraqieconomists.net/ar/

قبل ذلك كانت هناك حملات الإبادة التي كان يقوم بها ملك بلجيكا ليوبولد الثاني. في فضح ممارسات الملك ليوبولد الثاني راجع:
John Tully, *The Devil's Milk: A Social History of Rubber* (New York: Monthly Review Press, 2011).في فصل يحمل عنوان "قلب الظلام: المطاط والدم في الكونغو"، ص101-122

في أوائل القرن العشرين كتب مارك توين بسخرية سياسية لاذعة كتاباً صغيراً عن فظاعات الملك ليوبولد:
Mark Twain, *King Leopold's Soliloquy* (Berlin: Seven Seas Books, 1961. 1st ed. 1905).
وكتب عنه أيضاً:
Adam Hochschild, *King Leopold's Ghost* (London: Macmillan, 1999), Ch 13, Breaking into the Thieves' Kitchen, pp 195-208.

4 الإشارة هنا لكتاب:
Utsa Patnaik and Prabhat Patnaik, *Capital and Imperialism: Theory, History, and the Present* (New York: Monthly Review Press, 2021)